

مجلة اللغة العربية و آدابها

السنة الاولى - العدد الثالث - شتاء ١٤٢٧ ق/٢٠٠٦ م

ص ٤٥-١٩

الإلتزام السياسي في شعر معروف الرصافي*

الدكتورة منصوره زركوب**

الدكتور محمود رضا توكلبي محمدي***

خلاصة :

معروف الرصافي شاعر عراقي معاصر. ولد عام ١٨٧٥م في بغداد و توفي فيها عام ١٩٤٥م. تلقى دروسه الابتدائية في الكتاتيب و في إحدى مدارس بغداد . بعد إتمام دروسه الابتدائية ذهب إلى المدرسة الرشدية العسكرية لكنّه لم يحرز شهادته، ثم تلمذ عند العلامة الألوسي و صار معلماً في المدارس. بعد ذا إتجه إلى الأعمال الرسمية ولكن بعد مدة استقال منها...

مرت على الرصافي في حياته السياسية ثلاث مراحل هامة هي: الإمبراطورية العثمانية و الإحتلال الإنجليزي و الحكومات الصورية. هذا المقال يتطرق إلى مواقف الرصافي السياسية يبيّن رأي الشاعر فيها مستفيداً من أشعار الشاعر خاصة و آراء الآخرين في هذا الصدد عامة.

الكلمات الرئيسية: الرصافي، الإلتزام، الحكومة العثمانية، الإنتداب، السياسة.

** الأستاذة المساعدة بجامعة إصفهان

* تاريخ الوصول : ١٠/١٠/٨٤ تاريخ القبول: ١٥/١١/٨٤

*** أستاذ بجامعة قم

مقدمة :

كان العرب قبل عصر النهضة يعيشون في انحطاط قاتم مظلم و طال نومهم في هذا الوضع المؤسف، ولكن بعد انتظار طويل و نوم كريحه في ليل طويل أخذت شمس عصر النهضة بالشروق، فبعد حملة نابليون بونابرت إلى مصر سنة ١٧٩٨ م خرج العرب من ليلهم المظلم و بدأوا يخطون في طريق الحضارة و التقدم.

إنّ عيون العرب في مقطع هذا العصر بما مهدّ الطريق من العوامل منها: أ- فتح قناة السويس. ب- الصراع بين العثمانيين من جهة و بين اوربا من جهة أخرى. ج- الثورة الفرنسية و إنتشار مبادئها و معتقداتها في العالم العربي. د- البعثات العلمية التي كانت ترسل إلى اوربا لتعلم الثقافات الأجنبية و الأوروبية. هـ - حملة نابليون بونابرت إلى مصر. هذا و بدأ العرب يخرجون مما هم فيه من الخمول و الكسل و التخلف و بدأوا نضالا سياسيا و اجتماعيا و اقتصاديا في هذا الصدد وصولا إلى ما يريدونه من الرقي و الحضارة. أمّا الأدباء فهم أرادوا أن يدخلوا في هذا النضال الشعبي و رأوا أنّ على عاتقهم ايقاظ شعبهم و وعيهم و تفتح عيونهم أمام ما يقع في مجتمعهم.

معروف الرصافي ايضا من هؤلاء الشعراء ارتبط بالمجتمع الذي عاش فيه ارتباطا وثيقا، و وقف شعره لهذا المجتمع.

ننظر عابراً إلى حياته و آرائه في العثمانيين و الانتداب و الحكومة و الوزراء و الدستور و مؤتمر باريس و المعاهدات و الانكليزية و الشرق:

١- حياة الرصافي

ولد معروف عبدالغني الرصافي في حي الرصافة سنة ١٢٩٢هـ في الجانب الشرقي من مدينة بغداد في أسرة متوسطة الحال ، أما أبوه فمن عشيرة كردية تقطن في نواحي

كركوك تسمى الجبارة وتدعى هذه العشيرة أنها علوية النسب ويسلم لهم جميع اهالي كردستان بذلك، فان صح إدعاؤها فهي عربية الأصل ، وأما أمه فمن عشيرة قراغول وهم بطن من شمر القاطنين في سهول العراق». (رفائيل بطي، ١٩٢٣م، ص٦٩) و يبدو أن : «والده عبد الغني أفندي كان جنديا متدينا كثير الصلاة ، كثير الأسفار والتنقلات في مهمات عسكرية، ولم يكد يألف البيت الزوجي ، ووالدته فاطمة بنت جاسم كانت ولية إبنها منذ طفولته الأولى حتى نهاية عقده الثاني ، وإليها يعود في معظم مشكلاته ، إذ كان غياب والده عن منزله شبه دائم». (إيمان يوسف بقاعي، ١٩٩٤م، ص٢٥).

تلقى الرصافي دروسه الإبتدائية في الكتاتيب و في إحدى مدارس الرصافة، ثم ذهب إلى المدرسة الرشدية العسكرية ولكن لم يحرز شهادتها، بل ترك المدرسة و تتلمذ عند العلامة محمود شكري الألوسي في علوم اللغة العربية و ما يرتبط بها حول ثلاث عشرة سنة. بعد ذا إتجه إلى التدريس في المدارس الإبتدائية و في مدرسة الإعداد العسكري و ظل في هذا العمل حتى أعلن الدستور عام ١٩٠٨م، فذهب إلى الآستانة و انتخب مدرسا للعربية « في المدرسة الملكية الشاهانية وللإسهام في تحرير مجلة (الارشاد) وانتخب نائبا عن لواءالمنتفق في مجلس المبعوثان العثماني (حنا الفاخوري، ١٩٩١م، ج٤، ص٥٧٢) ، ثم ترك الآستانة و في عام ١٩٢١ بعد الحرب العالمية الأولى و حين تألفت الحكومة العراقية المؤقتة، استدعته الحكومة و عينته نائبا لرئيس لجنة الترجمة و التعريب في وزارة المعارف، أما في سنة ١٩٢٨ فاستقال الرصافي من الأعمال الرسمية و أنتخب عضوا في مجلس النواب خمس مرات مدة ثمانية أعوام.

إنّه زار مصر عام ١٩٣٦ و صمم على المقاومة و الكفاح ضد الإحتلال البريطاني و بعد فشل احلامه عاش في شبه عزلة من الناس في بيته في حيّ الأعظمية و إنتابه العلل

و الأمراض و كان الوضع هكذا إلى أن توفي عام ١٩٤٥م. يصف محمد مهدي الجواهري حال الرّصافي عند احتضاره قائلاً : «إنتهى الرّصافي مساء يوم ١٦ آذار من عام ١٩٤٥ في تلك الغرفة الجرداء التي لا أنساها ابدا، وكان امامي ممددا على سرير من السرر الرخيصة وقد أحس بي وأنا أدب على أطراف أصابعي لثلا أوقظه، وكانت حيرتي في أين أجلس، إذ ليس في الغرفة كرسي أو خشبة أو حتى حجر للجلوس. وتبدد حيرتي باستيقاظ الرّصافي وجلوسي على السرير، فيتحامل على نفسه، فألح عليه ألا يفعل، فيأبى، فأطبع، فأتحدث إليه آخر حديث قبل أن يموت. وقد إنقضى عصر الرّصافي في هذه الغرفة الجرداء، ولم يسدل عليه ستار وكان الجومشمسا والضوء يؤدي عيون الرّصافي. وكان على درجة من الحرارة لا يطيقها مريض، وأحلف صادقا انه لم يكن في غرفة صاحب هذا الجليل ستار أو غطاء يمد عليه». (أحمد أبو حافة، ١٩٧٩م، هامش ٢٠٥) فرحمه الله و يقرنه بجليل نعمائه.

٢- الإلتزام السياسي في أشعار معروف الرصافي

كان الرّصافي يعيش في زمن شهد مجتمعه كثيرا من الأحداث و التطورات السياسية الخطيرة، فهو عايش في حياته الأدبية ثلاثة عهود سياسية، فأول مرحلة حياة الشاعر الأدبية مضت تحت ظل الحكم العثماني و ما رأى فيه من الإستبداد و ظلم الحكام وذوي القدرة على الناس، ثم إنقلبت الأوضاع و رأت الأمة العربية نفسها أمام الحرب العالمية الأولى و قيام شريف حسين و وقوفه أمام العثمانيين، ثم إحتلال العراق من قبل الإنجليز و هذا العهد يكون المرحلة الثانية من حياة الشاعر السياسية و المرحلة الثالثة تكون عهد الإنتداب و الرصافي بصفته شاعر ملتزم ما سكت أمام هذه الحوادث بل نظم أشعارا كثيرة فيها.

١-٢- الرصافي و العثمانيون:

إنَّ الرصافي في عهد العثمانيين عارض السلطان عبد الحميد و قام أمام إستبداده و تعسفه ولكن هذا لا يعني أنه عارض الحكومة العثمانية كلها، لا؛ بل اعتقد الرصافي بالإصلاح في إطار الدولة المركزية معارضاً الإستبداد الحميدي، قائلاً في قصيدته « تنبيه النيام» (الرصافي، ١٩٨٦م، ج١، ص٢٩٦):

أما أن أن يَغشى البلادَ سَعودُها و يَذهبَ عَن هذي النيامِ هَجودُها
مَتى يَتأتى في القلوبِ إنتباهُها فيَنجابَ عَنها رَينُها و جُمودُها
أما أسدٌ يَحمي البلادَ غَضَنفِرٌ* فَقدَ عاثَ فيها بِالْمَظالمِ سَيدُها

فهو بعد ذكر هذه الأبيات التي تشبه مقدمة تمهد الشرائط للتطرق إلى الموضوع الرئيسي ينشد أشعارا يدرس فيها أوضاع المجتمع تحت سيطرة الإستبداد الحميدي متعجباً لخضوعهم أمام السلطان قائلاً:

عَجِبْتُ لِقومٍ يَخضَعونَ لِدولَةٍ يَسوسُهمُ بِالمُوبقاتِ عَميدُها
و أعجَبُ من ذَا أتَهمُ يَرهبونَها و أموالُهمُ منها و منهمُ جُنودُها
إذا وُلِّيتْ أمرَ العبادِ طغائُها و سادَ على القومِ السُّرارةِ مَسودُها
فما أنتَ إلاَّ أيُّها المَوتُ نعمةٌ* يَعضُّ على أهلِ الحِفاظِ جُحودُها

يعتقد الرصافي بأنَّ على الحكومة أن ترهب من الناس و من عدم رضاهم من أعمال الحكام، لأنَّ كل ما يكون بين ايديها من الجيوش و النقود و... من الناس و يتعجب لأنه يرى في مجتمعه أنَّ الأمرشاع خلافاً لذلك و الناس يخافون الدولة و بعد ذا يقول إذا اصبح العلماء منبذين و الجاهلون مدعوين، فالموت أفضل و أعلى من العيش،

ثم يحرص أبناء وطنه على الكفاح و الثورة على الإستبداد الحميدي و يوجه اليهم الشنان بسبب سكوهم امام هذا التعسف المظلم قائلاً:

بَنِي وَطَنِي مَا لِي أَرَاكُمْ صَبَرْتُمْ عَلَى نُوبِ أَعْيَا الْحُصَاةِ عَدِيدُهَا
فَعُدْتُمْ عَنِ السَّعْيِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْعُلَى عَلَى حِينِ يُزْرِي بِالرَّجَالِ قَعُودُهَا
و لَمْ تَأْخُذُوا لِلْأَمْرِ يَوْمًا عُنَادَهُ فَجَاءَ أُمُورٌ سَاءَ فِيكُمْ عَتِيدُهَا
فهو يشتم ابناء شعبه بسبب عدم معارضتهم الحكومة و يجذرههم من يوم
يتحسر الناس على ماضيهم و قعودهم و إهمالهم أعمالهم و هذا إلترام حقيقي نراه في
أشعار معروف الرصافي، ثم الشاعر يدعو الناس إلى الإتحاد و التعاون و يبعدهم من أن
يكونوا مقلدين تقليدا عشوائيا.

الرصافي في قصيدته « إيقاظ الرقود» (الرصافي، ١٩٨٦م، ج١، ص٣٣٢) يعالج
موضوعات كثيرة مرتبطة بالتزامه السياسي و الإجتماعي و يتطرق فيها إلى الإستبداد
الحميدي قائلاً:

حُكُومَةٌ شَعَبِنَا جَارَتْ وَصَارَتْ عَلَيْنَا تَسْتَبِدُّ بِمَا أَشَارَتْ
فَلَا أَحَدٌ دَعَتْهُ وَ لَا اسْتَشَارَتْ وَ كُلُّ حُكُومَةٍ ظَلَمَتْ وَ جَارَتْ
فَبَشَّرَهَا بِتَمْزِيقِ الْجُدُودِ
حُكُومَتُنَا تَمِيلُ لِبَاخْسِيهَا مُجَانِبَةً طَرِيقَ مُؤَسَّسِيهَا
فَلَا يَغْرُرُكَ لَيْنٌ مُلَابِسِيهَا فَهَمُّ كَالنَّارِ تُحْرِقُ لَامِسِيهَا
وَتَحْسُنُ لِلنَّوَاطِرِ مِنْ بَعِيدِ

فهو يشير إلى اوضاع مجتمعه زمن سيادة عبدالحميد عليه و يقول إن هذه الحكومة تستبد علينا و لا تستشير في أموره احدا، و من الطريف أنه يبين لنا إتجاهه حيال الحكم العثماني، فلا يرفضه رفضا بل يعتقد بالإصلاح تحت ظل الحكومة و يقول الآن نحن حدنا و إبتعدنا أنفسنا من طريق مؤسسي حكومتنا، فهو يطلق على الحكم العثماني بلفظ حكومتنا وهذا يعني عدم تعارض بين عقائد الشاعر و بين مشروعية الحكومة العثمانية بل الذي يعارضه الشاعر هو الإستبداد الحميدي فيردف قوله بسخرية حزينة:

أقولُ و لَيْسَ بَعْضُ الْقَوْلِ جَدًّا لِسُلْطَانٍ تَجَبَّرَ و اسْتَبَدًّا
تَعَدَّى فِي الْأُمُورِ و مَا اسْتَعَدًّا أَلَا يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَفْدَى

وَمَنْ لَوْلَاهُ لَمْ نَكُ فِي الْوُجُودِ

أَمْ عَنْ أَنْ تَسُوسَ الْمَلِكَ طَرْفَا أَقِمِ مَا تَشْتَهِي زُمْرًا و عَزْفَا
أَطْلُ نُكْرَ الرَّعِيَّةِ خَلَّ عُرْفَا سُمِ الْبُلْدَانَ مَهْمَا شَتَّتَ خَسْفَا

وَأَرْسِلْ مَنْ تَشَاءُ إِلَى اللَّحُودِ

فَدَتِكَ النَّاسُ مِنْ مُلْكِ مُطَاعٍ أَبِنْ مَا شَتَّتَ مِنْ طُرُقِ ابْتِدَاعٍ
و لَا تَخْشَ الْإِلَهَ و لَا تَرَاعٍ فَهَلْ هَذَا الْبِلَادُ سِوَى ضِيَاعٍ

مَلَكْتَ، أَوِ الْعِبَادُ سِوَى عَبِيدِ؟

فهذه الأبيات ليست بأبيات أنشدها شاعرٌ للمتعة و الجمال، بل آلام و أحزان تجيش في صدر ملتزم أَلَّتْ به كوارث و ظلام و... تخرج شعراً بأسلوب السخرية و الهزل يخاطب السلطان كأنه يخيل أن يفكر في نفعه الشخصي و يظن أنه لا تهمه منافع الناس راحتهم، فالناس ليسوا سوى أعبد و غلمان و إماء بين يديه.

الشاعر في قصيدته « رقية الصريع » (الرصافي، ١٩٨٦م، ج١، ص٤٥٠) يخاطب العدل و يريد منه الرجوع إلى البلاد بعد نزوحه منها، ثم يتطرق إلى أوضاع الحكومة و ما شاع فيها من الفساد و الارتشاء. و يشبه دار الخلافة بسوق تبايع و تشتري فيها المناصب الحكومية بالنقود و يشير مباشرة إلى الإستبداد الحميدي قائلاً:

أَبَتِ السِّيَاسَةُ أَنْ تَدُومَ حُكُومَةَ خُصِّتْ بِرَأْيِ مَقْدَسٍ لَمْ يُسْأَلِ
مَثَلُ الحُكُومَةِ تَسْتَبِدُّ بِحُكْمِهَا مَثَلُ البِنَاءِ عَلَى نَقَا مُتَهَيَّلِ

بعد تشبيه هذه الحكومة ببناء مبني على الرمال المتحركة يخاطب أبناء شعبه قائلاً:

يَا أُمَّةً رَقَدَتْ وَ طَالَ رُقَادُهَا هُبِّي وَ فِي أَمْرِ المُلُوكِ تَأْمَلِي
أَيُّكُونُ ظِلُّ اللّهِ تَارِكُ حُكْمِهِ الـ مَنصُوصِ فِي آيِ الكِتَابِ المُتْرَلِ
أَمْ هَلْ يَكُونُ خَلِيفَةَ لِرَسُولِهِ مَن حَادَ عَن هَدْيِ النّبِيِّ المُرْسَلِ

إنه يستنهض أبناء شعبه و يريد منهم التدبر في أمر الخليفة، ثم يواصل قوله بذكر بعض خصال هذه الخليفة المكروهة، منها عدم إنقياده أمام الشعب و الحكم على هواه دون رعاية مصالح الشعب و الإستغلال من صبر الناس و إنقيادهم له، ثم يدعو إلى الحكم الجمهوري:

إِنَّ الحُكُومَةَ وَ هِيَ جُمهُورِيَّةٌ كَشَفَتْ عِمَايَةَ قَلْبِ كُلِّ مُضَلَّلِ
سَارَتْ إِلَى نَجْحِ العِبَادِ بِسِيرَةٍ أَبَدَتْ لَهُمُ حُمُقَ الزَّمَانِ الأوَّلِ

إن الشاعر بعد التطرق إلى أوضاع الحكومة لا يطبق التكلم تحت استار الكلمات

المبهمة فيتدفق التزامه السياسي من صدره كعيون متفجرة و يهتف و يصرخ:

حَتَّامَ نَبَقَى لُعبَةً لِحُكُومَةِ دَامَتْ نُجْرَعُنَا نَقِيْعَ الحِنظَلِ
تَنحُو بِنَا طُرُقَ البَوَارِ تَحِيْفًا وَ تَسُوْمُنَا سَوَاءَ العَذَابِ الأَهْوَلِ

هذا و نَحْنُ مُجَدِّلونَ تِجَاهِهَا كَالفأرِ مُرْتَعِداً تِجَاهَهُ الخَيْطَلِ
ما بَألْنَا مِنْهَا نَخَافُ القَتْلَ إِنْ قُمْنَا، أَمَا سَنَمُوتُ إِنْ لَمْ نَقْتَلِ؟

فالشاعر بعد خلع السلطان و إعلان الدستور صار من مدافعي هذه الحكومة ضدّ الغرب و يدعو ابناء أمتة العربية إلى الذود عن الحكم العثماني و دعا إلى مقارعة أعدائه. و له قصائد رائعة يستنهض فيها المسلمين إلى الجهاد(انيس المقدسي، ١٩٨٨م، ص ٦٨) خاصة بقصيدة «إلى الحرب» (الرصافي، ١٩٨٦م، ج ٢، ص ٤٤١)، فيها يدعو الشاعر الشعب العربي إلى الحرب جنبا إلى جنب الأتراك ضدّ ايطاليا:

ألا اهُمَّضْ و شَمِّرْ أَيُّهَا الشَّرْقُ لِلحَرْبِ و قَبِّلْ غِرارَ السِّيفِ واسلُ هَوَى الكَتَبِ
و لا تَغْتَرِرْ أَنْ قِيلَ عَصْرُ تَمَدَّنٍ فَإِنَّ الذي قالوه مِنْ أكْذَبِ الكَذِبِ
أَلَسْتَ تَراهِمْ بَينَ مِصرَ و تونِسَ أباحوا حِمَى الإسلامِ بالقتلِ و التَّهَبِ
و ما يُوخِذُ الطليانُ بالذنبِ وَ حَدَّهُمْ ولكنَّ جَمِيعُ العَرَبِ يُوخِذُ بالذَّنْبِ
و هكذا الحال حين نشبت الحرب العالمية الأولى بين الدول الأوربية و دخل تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا و نمسا» فقد وقف كثير من شعراء العرب أيضا مع الدولة العثمانية في قتالها ضد الحلفاء عندما نشأت تلك الحرب مدفوعين بعاطفتهم الدينية قبل كل شيء سواها، و قد إنعكست هذه المؤازرة في القصائد الكثيرة التي نظمت آنئذ، و من ذلك ما قاله معروف الرصافي الذي يمكن إعتباره من شعراء المتجمع الإسلامي برغم حملته الشعواء على عبد الحميد و إستبداده:

يا قوم أن العدا قد هاجموا الوطننا فانضوا الصوارم و احموا الأهل و السكنا

(عمر الدقاق، ١٩٨٥م، ص ٤٢)

هذه بقصيدة « الوطن و الجهاد»، فيها يدعو إلى دعم العثمانيين و يندد المصريين لمخاراتهم الإنكليز و تتبع سياستهم الإستعمارية في الحرب ويقول:

عارٌ على المسلمينَ اليومَ إثمهم لم يَنقذوا مصرَ أو لم يَنقذوا عَدَنًا

(الرصافي، ١٩٨٦م، ج٢، ص٤٦٥)

إنَّ إنتقاد الرصافي للحكومات الفاسدة لا تكون في نطاق الدولة العثمانية فحسب، بل هو بعد إختيار هذه الدولة قام يعارض الإنتداب البريطاني و الحكومات السورية بعدها.

١-١-٢- الرصافي و الدستور:

فرح الناس و معهم الأدباء بعد إعلان الدستور ، فهم كانوا يفكرون بأنهم قد وصلوا إلى ما يريدون من الحرية و المساواة ولكن ما مضت إلا سنة واحدة من إعلان الدستور حتى رأى الناس تملل الأحرار و بعدهم خطوة تلو أخرى من الشعارات و المواعيد التي وعدوا بإنجازها في بادئ الأمر و الرصافي ايضا منهم، فوقف شعره في سبيل الدفاع عنهم و عن قيمهم و عمّا يرتبط بإصلاحهم و نيلهم إلى التعالي و إلى العلم و الثقافة، فما لبث أن يسلّ لسانه من غمده و ينشد قصيدته « شكوى إلى الدستور» (الرصافي، ١٩٨٦م، ج٢، ص٢٥٢) لما سقطت وزارة حلمي باشا و قامت بعدها وزارة حقي باشا انتقد خطة الإصلاحيين عقب الدستور:

شكايَةٌ قلب بالأسى نابض العرقِ إلى قائم الدّستورِ و العدلِ و الحقِّ
مُلوكٌ على كُـلِّ المُلوكِ ثلاثةٌ لها الحُكم دون النَّاسِ في الفتقِ و الرّتقِ
و أقسمُ أنّي لا أكونُ لغيرها مُطيعاً و لو من أجلها ضربتُ عنقي
فهل آيها الدستورُ تسمَعُ شاكيا بك اليومَ يرجو أن يرى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصّورمِ طالعا علينا طلوع الشمسِ من مُنتهى الأفقِ

فَصَادَفَتْ مِمَّا أُمَّةٌ قَدْ تَعَشَّقَتْ لِقَاءَكَ حَتَّى جَاوَزَتْ مَبْلَغَ الْعِشْقِ

فهو يخاطب الدستور و يذكر إعتناقه للحكم الدستوري ولو من أجلها ضُربت عنقه و هذا ينبع عن إلتزام الشاعر به و يعتقد بأن الدستور و الحق و العدل ملوك الناس و لا يليق لأحد غيرها- يعني غير الحق و العدل و الدستور- أن يحكم على الناس، ثم يذكر حبه و حب ابناء وطنه للدستور و الحكم الدستوري و يعبر عن أملهم للحكم الدستوري و هي الوصول إلى الإتحاد و الترقى:

بِكَ الْيَوْمَ أَشْقَانَا إِلَى أَنْتَ مُسْعِدٍ لَدَيْهِمْ فَيَا لَلَّهِ لِلْمُسْعِدِ الْمُشْقِي
تَرَاكَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى الْخَلْقِ حُجَّةً وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ لَا عَلَى الْخَلْقِ
و لَمْ نَكُ نَدْرِي لِإِهْتِضَامِ حُقُوقِنَا أَنْخُنْ مِنَ الْأَحْرَارِ أَمْ نَحْنُ فِي رِقٍّ؟
و لَمْ نَسْتَفِدْ إِلَّا سُقُوطَ وَزَارَةٍ وَ تَأَلِيفَ أُخْرَى مِثْلَ تِلْكَ بِلَا فَرْقِ
و مَاذَا عَسَى يُجْدِي سُقُوطَ وَزَارَةٍ إِذَا لَمْ تَقُمْ أُخْرَى عَلَى الْعَدْلِ وَ الصِّدْقِ

يعتقد الشاعر في هذه الأبيات بأن الذين صاروا حكام الناس و اولياء أمرهم بعد إعلان الدستور و بواسطة الدستور لم ينهجوا نهج الصواب بل خطوا في طريق تضليل الناس و سوقهم إلى الشقاوة و الثبور، فكل شيء وصل إليه الناس من الحكم الدستوري هي سقوط وزارة و تأليف أخرى مكافأها، و هي مثلها في نتائجها السيئة و نهجها الرديء.

فنرى كيف الرصافي يسيء الظن بالحكم الدستوري و ييأس من هذا الحكم و يسلك مسلك الإنتقاد و التهكم أمامه و هذا الحال ليس ما نراه في معروف الرصافي فقط، بل يعم في ذلك العصر أكثر الشعراء، هذا أنيس المقدسي بعد شرح ردود فعل الأدياء فيما يرتبط بالحكم الدستوري و فرحهم بسبب إعلانه يقول: «على أنه لم يظل

كذلك طويلاً، فلم تكد تمر سنة على إعلان الدستور حتى رأينا كثيراً من الفئات الشعرية مصطبغة باللون قائمة من الإشفاق و الحذر... و من اسباب هذا التشاؤم خيبة الأمل في النظام الدستوري.... و لا شك في أن العثمانيين عموماً لم يكونوا على استعداد كاف للحياة الدستورية. و قد ظهر في تطبيقه نقائص لم يكونوا يتوقعونها مما أثار في النفوس إحساسات معكوسة ظهرت في الأدب بمظهر الحيبة و الفشل». (انيس المقدسي، ١٩٨٨م، ص ٨٥-٨٤)

٢-١-٢- الرصافي و مؤتمر باريس:

من المظاهر التي عارضها الرصافي و هجم عليها في أشعاره إنعقاد مؤتمر في بيروت و بعدها في باريس من قبل الإصلاحيين. فالرصافي في بادئ الأمر دعم من حركتهم الإصلاحية في إطار الدولة العثمانية و أيدهم في أشعاره ولكن بعد إطلاعه على لائحتهم و ما رأى فيها من فساد أنشد قصيدة تحت عنوان «ما هكذا» (الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٢٦٣) و فيها يفند رأي الإصلاحيين و يهجم عليهم:

أصَبَحْتُ أَوْسَعُهُمْ لَوْمًا وَ تَثْرِيًا لَمَّا إِمْتَطَوْا غَارِبَ الْإِفْرَاطِ مَرْكُوبًا
وَ أَهْبَتْ مِنْهُمْ الْأَهْوَاءُ جَارِيَةً إِلَى التَّقَرُّقِ الْهَوْبَاءِ فَأَلْهَوْبًا
فَأَرْهَجُوا الشَّرَّ حَتَّى إِنَّ هَبْوَتَهُ مُدَّتْ سُرَادِقُهَا فِي اللُّوْحِ مَضْرُوبًا
رَامُوا الصَّلَاحَ وَ قَدِ جَاءُوا بِلَائِحَةٍ خَرَقَاءَ تَتْرُكُ شَمْلَ الشَّعْبِ مَشْعُوبًا
عَدَّوْا النَّصَارَى وَ عَدَّوْا الْمُسْلِمِينَ بِهَا وَ نَحْنُ نَعْهَدُهُمْ طُرًّا أَعَارِيَا

فالشاعر يصبح من لائمي الإصلاحيين و أعمالهم بعد أن كان من مؤيديهم و ما هذا إلا بعد ركوبهم مركب الإفراط و مشيهم في طريق التفريق. فالرصافي يقول إن الإصلاحيين قصدوا الإصلاح ولكن ضلوا الطريق و جاءوا بلائحة لا تُشَمُّ منها رائحة

الإصلاح و كل ما جاءوا به يدعو إلى الخلاف و التفرقة و منها التمييز بين المسلمين و
النصارى من العرب، فهو يشكو من الإصلاحيين مردفاً قوله:

مَنْ مُبْلِغُ الْقَوْمِ أَنَّ الْمُصْلِحِينَ لَهُمْ أَمْسُوا كَمَنْ لَيْسَ الْجَلْبَابَ مَقْلُوبَا
مَا ضَرَّهُمْ لَوْ نَحَوَا فِي الْأَمْرِ جَامِعَةً نُنْفِي الْكِنَائِسَ عَنْهَا وَ الْمَحَارِيبَا
لَكِنَّهُمْ أُمَّةٌ تَأْبَى مَشَارِبُهُمْ إِلَّا التَّعْصُبَ لِلْأَدْيَانِ مَشْرُوبَا
قَدْ حَاولُوا الْحَقَّ وَ اشْتَطُوا بِمَطْلِبِهِ حَتَّى بَدَا وَجْهَهُ كَاللَّيْلِ غَرِيبَا
قَامُوا يُرِيدُونَ إِصْلَاحًا فُقِمَتْ لَهُمْ اسْتَنْطِقُ الشَّعْرَ تَأْهِيلًا وَ تَرْحِيبَا
حَتَّى إِذَا مَحَضُوا آرَاءَهُمْ ظَهَرَتْ لِلنَّاسِ زُبْدُهَا تَأْيِماً وَ تَخْبِيبَا

فهو يعتقد بأن للمصلحين هدفا شريفا و نبيلاً وهو الإصلاح، ولكنهم عدلوا
عن الحق و صاروا كالذي يلبس جلبابه مقلوبا، يعني دعوا إلى شيء و مشوا في طريق
آخر و من أخطائهم في هذا الصدد التفريق بين المسلمين و المسيحيين و يربط الشاعر
هذا بتعصبهم في الدين و يقول إنهم قاموا للإصلاح ولكن حين أظهروا آرائهم للناس ما
رأوا فيه إلا الفساد و الضعف، ثم يشير الشاعر إلى فساد مؤتمر باريس و يعلن مخالفته له
و يقول:

إِنِّي لِأَبْصُرُ فِي بَيْرُوتَ قَائِبَةً لِلشَّرِّ مَوْشِكَةً أَنْ تَخْرُجَ الْقُوبَا
أَوْ أَكْرَهُ مِنْ "دِينَامِيْت" إِذَا أَنْفَجَرَتْ فَنَارُهَا تَنْسِفُ الشُّبَانَ وَ الشُّبِيَا
وَ قَدْ رَأَيْتُ أَنْاساً وَاصِلِينَ بِهَا وَ هُمْ بِيَارِيزَ مَلْبَارُودَ أَنْبُوبَا
وَ آخَرِينَ بِمَصْرَ يَطْلُبُونَ لَهَا تَفْرَقَعَا يَجْعَلُ الْمَعْمُورَ مَخْرُوبَا

فدنب الإصلاحيين هو إنعقاد مؤتمهم في بلد اوربي يطمع في البلدان العربية و خاصة سوريا، فالرصافي يعارض الإصلاحيين ولكن ليس بسبب سعيهم في الإصلاح بل بسبب عقدهم مؤتمرا في باريز و هي عاصمة بلد تعارض الدولة العثمانية بكل إمكانياتها، ثم يحذر قومه من أن يكونوا من متبعي هذه الجماعة و يقول:

يا أيها الناس لا يغرركم نفرٌ ضجوا بباريز إفسادا و تشعبيا
جاءت رسائلهم بالشّر مغرية تفتن في المكر أسلوبا فأسلوبا
فطالعوهم بالأيدي مطالعة تسطو عليهم تمزيقا و تأريبا

فهو يريد من قومه الوعي و النباهة و عدم الإغترار بأقوال الإصلاحيين في باريز، و الرصافي بعد إنشاد هذه القصيدة «قد أتهم يومئذ بمشايعة الأتراك تزلفا، أو إنه قد أخذ بالدعايات التركية، فكان في حكمه متسرعا، و الذي يلوح لنا أن هذا الشاعر العربي لم يكن الوحيد في حذره من الحركة الإصلاحية و حميته على الجامعة العثمانية، فقد ظهر في أنحاء مختلفة من البلاد العربية ما يشير إلى حذر المخلصين و خشيتهم من إعتداد أيدي الإستعمار و تصديق الجامعة العثمانية». (انيس المقدسي، ١٩٨٨م، ص ١٣٧)

١-٢ - الرصافي و حكومة الإنتداب:

هذه مواضع الرصافي حيال الوقائع التي كانت داخل إطار الحكومة العثمانيين، ولكن الأمر ما بقي هكذا، بل مع بدء الحرب العالمية الأولى تدهورت الأوضاع و تطورت بحيث نرى قيام العرب بقيادة شريف حسين ضد الأتراك و إنهيار الدولة العثمانية. فالرصافي في هذه الحرب يقف ضد المستعمرين الغربيين و يدعو إلى حماية العثمانيين و يعارض بعد إنهيار الحكومة المركزية المحتلين الاجانب و كذا الحكومة

الوطنية السورية التي تعرف باسم «حكومة الإنتداب» و الوزراء الذين لا يعلمون شيئا إلاّ إتباع خطط الأجانب، فيقول في قصيدته « حكومة الإنتداب » (الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٤٠٣):

هذي حُكومتنا و كُلّ شُمُوحِها كَذِبٌ، و كُلّ صَنِيعِها مُتَكَلِّفٌ
غَشَّتْ مَظَاهِرُها و مُوّهَ وَجْهُها فَجَمِيعُ ما فِيها بَهاجُ زَيْفٌ
وَجْهانِ فِيها باطنٌ مُتَسَتِّرٌ لِلأَجَنِيِّ و ظاهِرٌ مُتَكشِّفٌ
وَالباطنُ المُستورُ فِيه تَحَكُّمٌ وَالظاهِرُ المُكشوفُ فِيه تَصَلِّفٌ

فالشاعر يبين لمخاطبيه آراءه في هذه الحكومة، فيهجم عليها و يشير إلى الإنتداب البريطاني و يقول انّ حكومتنا في الظاهر حكومة وطنية ولكن في الباطن تحت سيطرة الأجانب، ثم يردف قوله:

عَلَمٌ و دَسْتورٌ و مَجْلِسُ أُمَّة كُلُّ عَن المَعْنى الصَّحِيحِ مُحَرَّفٌ
أَسْماءُ لَيْسَ لِناسِ سِوى أَلْفاظِها أَمّا مَعانِيها فَلَيْسَتْ تُعْرَفُ
مَنْ يَقْرأ الدَّسْتورَ يَعْلَمُ أَنَّهُ وَفِقالِصَكِّ الإِنْتدابِ مُصْتَفٌ
مَنْ يَنْظُرُ العَلَمَ المُرْفَرَفَ يَلْقَهُ فِي عَزِّ غَيرِ بَني البِلادِ يُرْفَرَفُ
مَنْ يَأْتِ مَجْلِسَنا يُصدِّقُ أَنَّهُ لِمُرادِ غَيرِ التَّاحِبِينَ مُؤَلَّفٌ
مَنْ يَأْتِ مُطَرِّدِ الوِزارَةِ يُلْفِها بِقِيودِ أَهلِ الإِسْتِشارَةِ تَرسُفُ

فالحكم الوطني حكم ظاهري صوري، والعلم و الدستور و مجلس الأمة ليس سوى أسماء خلابة ظاهرها جميل ولكن باطنها فاسد، فالدستور وضع لمصالح الإستعمار و علم البلاد يرفرف لعز غير مواطني البلاد و المجلس ايضا صوري و ليست للوزراء

ارادة في إدارة شئون البلاد. فيما أنّ الحكم والحكومة من صنع الإستعمار فلا عجب أن يغضب الرصافي على الحكومة:

أفْهَكَذَا تَبْقَى الحُكُومَةُ عِنْدَنَا كَلْهَآ ثُمُوهَ لِلوَرَى وَ تَزْحَرْفُ
كُثِرَتْ دَوَائِرُهَا وَ قَلَّ فِعَالُهَا كَالطَّبْلِ يَكْبُرُ وَ هُوَ خَالِ أَحْوَفُ
كَمْ سَاعَنَا مِنْهَا وَ مِنْ وَزْرَائِهَا عَمَلٌ بِمَنْفَعَةِ المَوَاطِنِ مُجْحَفُ

فيصف الرصافي ميزات هذه الحكومة الصورية بأنها كالطبل الأجووف و بعد

ذلك يدعو الشعب العراقي إلى الثورة ضد هذا الحكم فيقول:

إِنْ دَامَ هَذَا فِي البِلَادِ فَإِنَّهُ يَدْوَامِيهِ لَسِيوفِنَا مُسْتَرْعِفُ
لَأَبْدٍ مِنْ يَوْمٍ يَطُولُ عَلَيْكُمْ فِيهِ الحِسَابُ كَمَا يَطُولُ المَوْقِفُ
وَ إِذَا دَعَا دَاعِي البِلَادِ إِلَى الوَعْيِ أَتَظَنَّ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَتَخَلَّفُ
كَمْ مِنْ نَوَاصٍ لِلْعَدَا سَنَجِزُهَا وَ الحَىَّ بِأَيْدِي الثَّائِرِينَ سَتُنْتَفُ

فالرصافي يرى حكومة الملك و ما فيها من الضعف و الإستنجاد بالأجانب، ففي

حفلة تتويج الملك مثلا يرى كيف يتأخر المندوب السامي الإنجليري عن عمد بسبب أن يكون الملك في إنتظاره لا أن يكون هو في إنتظار الملك، و يرى كيف يجلس المندوب السامي عن يمين الملك و القائد العام للجيش البريطاني عن شماله، «فتشاءم الرصافي من ذلك- و من حقه أن يتشاءم- و أحس بان العراق الذي كان تخلص من الحكم الإنكليزي المباشر، سيقع من جديد في مصير أشد قسوة و أفظع أمرا، ذلك بعد أن يتولى الأمر فيه ملك، ولكن ليس له من الملك إلاّ الإسم، و بعد أن يتولى الأمر فيه حكام من ابناؤه لا يستطيعون أن يأتوا بعمل ما دون رغبة سادتهم الإنكليز و مشيئتهم. و من البديهي بعد ذلك كله أن يندد الرصافي بالوضع الجديد، و يسخر من الملك و

يهزأ بالوزارة و يدعو إلى الثورة على الإنكليز، و القضاء على من يسير في ركابهم،
ويأتمر بأوامرهم، ممن باعوا وطنه و قومه في سبيل تحقيق منافعهم الشخصية و مآربهم
الذاتية». (Comwww.arabreval).

و في قصيدة أخرى بعنوان «غادة الإنتداب» (الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٣٧٦)

يشبه حكومة الإنتداب بفتاة جميلة المظهر ولكن كريمة الباطن للناظر إليها :

يَوْمًا فِتْنَةً مِنْ ذَوَاتِ الْحِجَابِ	فِي الْكَرْخِ مِنْ بَغْدَادَ مَرَّتْ بِنَا
و كَفَّهَا مُشْبَعَةً بِالْحِضَابِ	لَبَّتْهَا مَوْقِرَةٌ بِالْحُلِيِّ
و كُلِّ مَا يَصْدُرُ مِنْهَا خِلَابِ	تَخْتَلِبُ النَّاسَ بِأَوْضَاعِهَا
فِي أَنَّهَا مِنْ مَعْمَلِ الْإِنْتِخَابِ	قَدْ غَوْلَطَ النَّاسَ بِأَثْوَابِهَا
مَنْسُوجَةٌ مِنْ مَنْسَجِ الْإِغْتِصَابِ..	و هِيَ لِعَمْرِي دُونَ مَا رِيَّةِ
مَنْ هَذِهِ الْغَادَةُ ذَاتُ الْحِجَابِ؟	قَالَ جَلِيسِي يَوْمَ مَرَّتْ بِنَا
حُكُومَةٌ جَادَةٌ بِهَا الْإِنْتِخَابِ	قَلْتُ لَهُ تِلْكَ لِأَوْطَانِنَا
و مَا سِوَى جُنُبُولُ تَحْتَ الشَّيَابِ	تَحْسِبُهَا حَسَنَاءَ مِنْ زِيَّهَا
و الْوَيْلُ فِي بَاطِنِهَا وَ الْعَذَابِ	ظَاهِرُهُ فِيهِ لَنَا رَحْمَةٌ

فاستطاع الرصافي أن يبين لنا في قصائده زيف الإنتخابات والحكومات

الصورية، فهو يسخر من هذه الحكومة و ما فيها من الفساد و اللغو و...» و نمضي مع
الرصافي في سخطه و ثورته و إستنكاره للوضع في العراق حتى نقف و إياه عند عام
١٩٢٩ م ، حيث وصل إلى بغداد آنذاك المستر كراين- الثري الأمريكي المعروف- و
قد أقيمت له حفلة تكريم دعي إليها الرصافي و القى قصيدة هناك ذكر فيها أن الحكومة
العراقية تنصرف في الظاهر كأنها حكومة ولكن في الواقع مجلس دمي بايدي الإنكليز و

تحقق خططهم و مآربهم الإستعمارية» (www.arabrenewal.com) فهو بقصيدة « يا
محب الشرق» و فيها يقول الشاعر مخاطبا المستر كراين:

و إذا تسأل عمّا هو في بغداد كائن
فهو حُكمٌ مشرقِي الضَّر رِعِ غَربِيُّ المَلابِنِ
وطِنِيُّ الإِسْمِ لَكِن إنكليزيُّ الشَّناشِنِ
فيه للإيعازِ من لندَنَ بالأمرِ مَكامِنِ
هو ذو وَجْهين وَجْهٌ ظاهِرٌ يَتَبَعُ باطنُ
قَد مَلَكنا كُلَّ شَيْءٍ نَحْنُ في الظاهِرِ لَكِنِ
نَحْنُ في الباطِنِ لا نَمَلِكُ تَحريكاً لِساكنِ
أفهدا جائزٌ في الـ غَربِ يا مستر كراين؟

(الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٣٤٤)

١-٢-١- الرصافي و الوزراء:

إن الرصافي في قصيدته « الوزارة المذنبه» يتطرق إلى موضوع الوزارة و
الوزراء في هذه الحكومة، ففي رأيه أن الوزراء في عصره من أضعف الناس، فلا إرادة
لهم في تعيين مصير بلدهم و لا فهم لهم ولا نباهة، فيقول:

دارَ ذا الدَّهرِ مدارَه فرأى النَّاسَ إِزورارَه.
إنَّ ديكَ الدَّهرِ قَدَ با ض بيغدادَ وزارَه
شأنُها شأنٌ عَجيبٌ قَصرتُ عَنه العِبارَه
هي لِلجاهِلِ عِزٌّ و لذي العِلْمِ حِقارَه
مَلِكُ البَدوِّ بِها الأَمـ رَ عَلى أَهلِ الحِضارَه

حَبَّيْتُ لِلوِطِيِّ الحُرِّ أَنْ يَهْجُرَ داره
 بِيَعُ لِلأَطْمَاعِ فِيهَا حَقَّكُمْ بِيَعِ الخِسارة
 فَكأنَّ الحُكْمَ وَالعَد لَ بِها قِطُّ وَ فاره
 كَمَ وزيرٍ هُوَ كالوز رِ على ظَهْرِ الوِزاره
 وَ وزيرٍ مُلْحَقٍ كالذِّ يَلِ فِي عَجَزِ الحِمارة

(الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٤٠٩)

و نرى في القصيدة صوراً فنيّة رائعة، فالشاعر يشبه الدهر بالديك و الوزارة ببيضة الديك، و الحكم يشبه القط و العدل فارة- كأنّ العدل و الحكم لا يجتمعان- و غير ذلك من الصور، «و قد بلغ الرصافي في هذه الصور مستوى فنيا رفيعا يخيّل للقارئ معها أنّ الشاعر لم يترك في هذا المجال زيادة لمستزيد، و بخاصة حين يقارن الوزارة ببيضة الديك إمعانا في عجب من أمرها، ثم تشبيه الحكم و العدل بالقط و الفارة و جعله الوزير ذنبا للحمارة...». (عمر الدقاق، ١٩٨٥م، ص ٣٤٥)

يدعو الشاعر ابناء قومه بعد الأبيات المذكورة إلى الثورة و القيام على هذا النقشف و العدوان و يشير إلى خضوع الوزراء أمام الأجانب الذين يسيطرون عليهم و يأمرهم في أفعالهم قائلاً:

يا بَنِي الأوطانِ هُبُّوا وَ إنْقَضُوا هذِي الغرارة
 أدركوا الحَقَّ فَقدَ شَنِّ تَ على الحَقِّ الإِغارة
 لا تُسلِ عنه وَزيرَ القَو مِ واسألِ مُستَشارَه
 فوزيرُ القومِ لا يَعمُ مَلُّ من غَيرِ إشارَه
 هو لا يَمْلِكُ أمراً غَيرَ كرسِيِّ الوزارَه

يَأْخُذُ الرَّاتِبَ إِمَّا بَلَغَ الشَّهْرَ سِرَّارَهُ
ثُمَّ لَا يَعْرِفُ مِنْ بَعْدُ: خَرَابٌ * أَمِ عِمَارَهُ

فهو في هذه الأبيات يشير غير مباشر إلى الإنتداب البريطاني و يبين عدم قدرة الوزراء على التدخل في شؤون بلادهم، فعملهم ينحصر على أخذ الراتب في آخر الشهر و لا يهتمهم أيمضي البلاد إلى الخراب أم إلى العمارة، وفي «الوزارة عندنا» يشير مباشرة إلى إختيار الإنجليز الوزراء الذين يخطون في طريق سياستهم الإستعمارية:

إِنَّ الْوِزَارَةَ - لَا أَبَا لَكَ - عِنْدَنَا ثَوْبٌ يَفْصَلُ فِي مَعَاهِدِ لِنْدَنَا
لَا يَرْتَدِيهِ سِوَى إِمْرِيءٍ أَضْحَى لَهُ طَبْعاً وَدَادَ الْإِنْكَلِيزِ وَ دِيدَنَا
(الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان، ٢، ص: ٥٠٤)

٢-٢-١ - الرصافي و المعاهدات:

من الأمور التي عاجلها الرصافي في أشعاره، المعاهدات التي كانت بين العراق و الحكومات الإستعمارية، فالرصافي في بداية الثلاثينيات أصبح نائبا في المجلس النيابي العراقي « حيث كان نوري السعيد رئيسا للوزارة و قد إعترض الرصافي على توقيع المعاهدات التي قدمتها بريطانيا بواسطة نوري السعيد، و كشفت في كلماته في المجلس النيابي مخاطر تلك الإتفاقيات متسائلا: أية معاهدة هذه تقوم بين الطرفين أحدهما قوي محتل و الآخر ضعيف؟... و أية منافع سيجنيها العراق من جراء عقد تلك الإتفاقيات؟...». (www.arabrenewal.com)

فقد كان المستعمر نائم الملمس و لم يحاول إلاّ في ساعات اليأس أن يستفزّ مشاعر الشعب، خلافا لما كانت تتورّط به فرنسا في سوريا من طيش. و ربما كان

معروف الرصافي و محمد مهدي الجواهري و جميل صدقي الزهاوي أبطال هذا الميدان،
و من ذلك قصيده للرصافي يقول فيها:

خلقتم لنا من كلِّ عهدٍ ممّوهٍ قيوداً بها إستقلالنا يتقيّد
إلى أن غدا إستقلالنا ضحكة الوري به ساخر كلّ امرئٍ و مندّد»
(عمر الدقّاق، ١٩٨٥م، ص ٣٢٠ - ٢١)

هذان البيتان في قصيدة تحت عنوان « بين الإستقلال و الإنتداب » (الرصافي،
١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٤٢٠) و في قصيدة أخرى عنوانها «كيف نحن في العراق» (الرصافي،
١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٣٩٩) يشير إلى هذه المعاهدات الزائفة بين الإنجليز و العراق و يقول:
و ليسَ الإنكليزُ بِمُنقِذينا و إن كتبتَ لنا منهم عُهودُ
متى شفقَ القويِّ على ضعيفٍ و كيفَ يُعاهدُ الخرفانَ سيّدُ
ولكنْ نحنُ في يَدِهِم أسارى و ما كتبوهُ من عهدٍ قيودُ
و في قصيدة أخرى عنوانها «عند نشر المعاهدة» يشير إلى إحدى هذه المعاهدات
بين الإنكليز و العراق:

نشروا المعاهدةَ التي في طيِّها قيدُ يعرضُ بأرجلِ الآمالِ
قد أبلعوننا حبةً إستعبادنا لكنْ مُوهةً بالإستقلالِ
و العهدُ بين الإنكليزِ و بيننا كالعهدِ بين الشاةِ و الرِّبَالِ
مَنْ ذا رأى ذئبَ الذئابِ مُصافحاً بتودّدٍ حملاً من الأحمالِ
لكنّهم خافوا إنفكاكُ قيودنا فاستوثقوا منهنّ بالأقفالِ
كتبوا لنا تلكَ العُهودَ و إنّما وضعوا بها قفلاً على الأغلالِ
شلتْ أكفُ موقعيها إنهم حلّت عليهم لعنةُ الأجيالِ
(ديوان، ١٩٨٦م، ج ٢، ص ٥٢٣)

فالشاعر يعتقد بأن لهذه المعاهدة ظاهرا جميلا يشير إلى إستقلال العراق و يدعو اليه ولكن في الباطن تسوق البلاد إلى الإستعباد و الخراب، و يشبه الوعد بين الإنكليز و العراق بالوعد بين الشاة و الرئبال و لا محالة أن الشاة يكون مغبونا في هذه المساومة، ثم يشير إلى ماهية هذه المعاهدات، فما هذه إلاّ لجعل القيود و السلاسل على رقبة الشعب العراقي، ثم يهدد الحكوميين بأن الأحوال ما تبقي على هذا و لا محالة يجيء يوم تنفك فيه هذه القيود و في ذلك اليوم يُعلم من المغبون الحقيقي.

و في قصيدة أخرى عنوانها «ميتة البطل الأكبر» يشير إلى زيف هذه المعاهدات و

يقول مخاطبا الإنجليز:

في كل يومٍ لنا معكم مُعاهدةٌ نَزْدَادُ مِنْهَا عَلَى أوطاننا خَطَرا
جَفَّتْ بِهَا سِرْحَةُ إِسْتِقْلالنا عَطْشا حتّى إذا ما مَسَسنا عودُها انكسرا
أما مَواعيدكم فهي التي إنكشفتُ عن مَينِ مَنْ مانَ أوعنَ غدرِ مَنْ عَدرا
(الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٦٧)

٣-١- الرصافي و الإنجليز:

من الموضوعات التي عالجها الشاعر في أشعاره السياسية و يتطرق إليها هو الإنجليز و ما يرى فيهم من الخدع و الدسائس و...، فرأى الشاعر أن على عاتقه تنبيه الشعب أمام هذا العدو الغاشم، فأنشد عدة قصائد في هذا الصدد، منها قصيدة «يوم الفلوجة» (الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٤١٢)، يقول أحمد محمد إبراهيم في مقال له حول سبب إنشاد القصيدة: «فأثناء الحرب العالمية الثانية قبل حوالي ٦٥ عاما و بالتحديد في عام ١٩٤١م، و بينما بريطانيا قد فرضت إنتدابها على العراق، بعد أن إحتلتها في أعقاب الحرب العالمية الأولى و فصلته عن الدولة العثمانية، حاولت قوات البريطاني

دخول الفلوجة ولتأديب المقاومة ضد المحتل، فواجهت دفاعا مستتبسلا و شرسا من أهلها، فلجأت إلى أبناء الأقليات من الآشور و اليهود، و سلطتهم لإيذاء الأهالي. و قد سجل شاعر العراق "معروف الرصافي" هذه الأحداث مصورا كبرياء و عزّة أهل الفلوجة في قصيدة بعنوان: يوم الفلوجة». (www.lahaonline.com):

أَيُّهَا الْإِنْكَلِيزُ لَنْ تَنْتَاسِي بَغِيكُمْ فِي مَسَاكِنِ الْفَلُوجَةِ
ذَاكَ بَغِيٌّ لَنْ يَشْفِيَّ اللَّهُ إِلَّا بِالْمَوَاضِي جَرِيحِهِ وَ شَجِيحِهِ

فالرصافي يهدد المستعمرين بأنّ بغيتهم و عدوانهم يبقى في ذاكرة أهالي الفلوجة و هم لا ينسونه أبدا و يهددهم بأن يردّ الناس على هذا البغي بالسيوف الماضية و بهذا وحده يشفي الجريح و الشجيج الذي كان العدو الغاصب مسببه، ثم يواصل قوله:

حَلَّهَا جَيْشُكُمْ يُرِيدُ إِنْتِقَامًا وَ هُوَ مُغْرٍ بِالسَّاكِنِينَ عُلُوجَهُ
يَوْمَ عَاثَتْ ذَنَابُ آشُورَ فِيهَا عَيْثَةٌ تَحْمَلُ الشَّنَارَ سَمِيحَهُ
فَاسْتَهَنْتُمْ بِالْمُسْلِمِينَ سَفَاهًا وَ اتَّخَذْتُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَليجِهِ
وَ أَدْرْتُمْ فِيهَا عَلَى الْعِزْلِ كَأَسَاءَ مِنْ دَمَاءِ بِالْغَدْرِ كَأَنْتَ مَرِيحَهُ
وَ اسْتَبَحْتُمْ أَمْوَالَهَا وَ قَطَعْتُمْ بَيْنَ أَهْلِ الدِّيَارِ كُلِّ وَ شَيْحَهُ

الشاعر هنا يصور لنا الجيش المحتل المغرور، فهو يعيث في الأرض فسادا و يسمح لأبناء آشور و اليهود بأن يؤذوا المسلمين و في هذا العمل إستهانة للمسلمين و مع أنّهم إستنجدوا اليهود و الرجال الضخام الجثث من الكفار للغلبة على المسلمين مع هذا لا يتجرؤون إلاّ على العزل، فيسفكون دماءهم غدرا و يستبيحون أموالهم، ثم يسأل:

أَفْهَذَا تَمَدُّنٌ وَ عِلَاءٌ شَعْبُكُمْ يَدَّعِي إِلَيْهِ عُرُوجَهُ
أَمْ سَكَّرْتُمْ لِمَا غَلَبْتُمْ بِحَرْبٍ لَمْ تَكُنْ فِي إِنْبِعَاثِهَا بِنَضِيحِهِ

يخاطب الشاعر الإنكليز و يسألهم أهذا القتال الذي أنتم مسيبيه في الفلوجة هو التمدن الذي أنتم تدعون، ثم يردف قوله بأن هذه الحرب اثبتت أن كل ما يدعيه الغرب من التمدن و الثقافة ليس إلا أضغاث أحلام، ثم يدعو في آخر القصيدة لوطنه و يفتخر به و يتمنى له و لشعبه السعادة و يسلم على أهل الفلوجة و على بسالتهم و شجاعتهم.

٤-١- الرصافي و الشرق:

إنّ للرصافي نزعة شرقية بمعنى أنّه دافع في أشعاره من الشرق و الشرقيين أمام الغرب و مطامعه و آماله المكروهة و برامج الاستعمارية في الشرق فبرز هذه النزعة في القصائد التي هجم فيها على الغرب و دافع عن أمته الشرقية وأهضها على الجهاد أمام الغرب و مطالباتها النكراء في الشرق.

للرصافي قصيدة عنوانها «الفيل و الحمل»، فيها نرى نزعة الشرقية بوضوح؛ فهو يربط بين تحرر العراق من أيدي الإستعمار و بين تحرر الهند، و «يرمز فيها إلى الهند و العراق بالفيل المكبل و الحمل، كما يرمز للمحتل الإنكليزي عدوهما المشترك بالذئب فيقول:

إذا ما سمعتُ الهند في قول قائلٍ	تخيّلتُ فيلاً بالحديدِ مُكبّلاً
فلو قامَ هذا الفيلُ و استجمَعَ القوى	لهزَّ بها شُممَ الجبالِ و قلَقَلاً
لنا حَمَلٌ و هو العِراقُ نُظنُّه	غداً من وراءِ الفيلِ للذئبِ مأكلاً
فإن ينجُ هذا الفيلُ من قيدِ أسره	نَجونا و إلا أصبحَ الأمرُ مُعضلاً

(الرصافي، ١٩٨٦، ج٢، ص٣٧٩)

فمن خلال هذه الأبيات تتضح الآلام المشتركة التي آخت بين البلدين الشرقيين و ربطت بينهما في مصير واحد، و الرصافي لا يرجو خلاصا للعراق إلاّ بعد تحرر الهند و هكذا كان». (عمر الدقاق، ١٩٨٥م، ص ١٠١-١٠٠)

للرصافي في هذا الصدد قصائد أخرى نخص بالذكر منها: «ميتة البطل الأكبر» (الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٦٣)، «يا محبّ الشرق» (الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٣٤٤) و «ولسون بين القول و الفعل» (الرصافي، ١٩٨٦م، ديوان ٢، ص ٣٣٧).

إنّ ولسون "الرئيس الأمريكي" أعلن من مبادئ غايتها إنقاذ الأمم المستضعفة و إرتكزت على تقرير مصيرهم على أيديهم» فقد حسب فيها العرب الذين أغرقهم طوفان الإستعمار منجاة لهم بعد أن طلعت عليهم بوجهها النبيل، حتى إنّ عددا غير قليل من الشعراء إنتشوا بها، فلم يترددوا في مدح إمريكا و سياستها و رئيسها... و سرعان ما تبين للعرب أنّ ما بدا لهم ماءً، ليس إلاّ سرايا. و لذلك كان ردّ الفعل شديدا لدى الشعراء، عبروا عنه بمرارة إثر تلقي شعوبهم تلك الضربة الجديدة من حيث لا يحتسبون». (عمر الدقاق، ١٩٨٥م، ص ٣٠٧)

إنّ الشاعر في قصيدته "ولسون بين القول و الفعل" يعبر عن خيبة أمل العراقيين و قطع أملهم عن ولسون بسبب تراجعته عن مبادئه الشهيرة في السلام فيقول:

قَالَ قَوْلًا بِهِ إِسْتَحَقَّ إِحْتِرَامًا وَتَعَدَّاهُ فَاسْتَحَقَّ مَلَامًا
كَانَ مِنْهُ الْمَقَالُ نُورًا فَلَمَّا حَانَ حِينَ الْفِعَالِ كَانَ ظِلَامًا

ثم يظهر نزعتة الشرقية، فيخاطب المسلمين و يظهر لهم حقيقة الغرب:

إِيَّهَا الْمُسْلِمُونَ لَسْتُمْ مِنَ الْعَرَبِ بِبِحَالٍ تَسْتَوْجِبُونَ إِحْتِرَامًا
إِنَّمَا أَنْتُمْ لَدَى الْعَرَبِ قَوْمٌ خَلَقُوا عَنْ سِوَى الشَّرِّورِ نِيَامًا

فَإِذَا مَا وَسِعَتِ النَّاسَ حِلْمًا عَدَّ الْعَرَبَ شِرَّةً وَ عُرَامَا
وَ إِذَا مَا مَالَتْهُمُ الْأَرْضَ عَدَلًا عُدَّ جَوْرًا ، أَوْ مَفْخِرًا عُدَّ ذَامَا
رَحِمَ اللَّهُ أُمَّةً أَصْبَحَ الْعَرَبُ بُ يَرَى كُلَّ ذَنْبِهَا الْإِسْلَامَا

هذا معروف الرصافي في نزعتة الإلتزامية السياسية، فهو يدافع في أشعاره عن المجتمع الإسلامي و الأمة العربية و يهجم على أعدائهم الغربيين، و لا يتوقف عند هذا الحد، بل نراه يدافع عن الشرق كله أمام مطامع الغرب و خططهم الإستعمارية ، فيفرح بسبب إنتصارات الشرقيين، سواء كان هذا الإنتصار من قبل العرب أو الترك المسلمين أو من قبل اليابانيين، و ما يريد من إنشاد أشعاره إلاّ سعادة وطنه و أبناء مجتمعه و سعادة الشرق و الشرقيين أمام الغرب المستعمر.

نتيجة البحث:

أن الأدب كمرآة تعكس جميع زوايا الحياة البشرية. والشاعر العربي منذ العصور كان لسان قومه الصارم يدافع عن حياضه و الشاعر العربي المعاصر لا ينسى مهمته البشرية و التاريخية. فمعروف الرصافي لا ينسى الشعب العراقي الذي عانى تحت الحكم العثماني و الانتداب الانكليزي او الحكومات المرتزقة و الوزراء الريبيين والاتفاقيات الجائدة فيثيرهم ناهضين ضدّ هذه الاضطهادات بادبه و باشعاره النارية داعياً إلى الثورة و تحرير بلادهم.

المصادر و المراجع:

- ١- الانترنت: www.arabrenewal.com
- ٢- بطي ، رفائيل، الأدب العصري في العراق العربي ، ط١، القاهرة ، المطبعة السلفية، ١٩٢٣م.
- ٣- البقاعي ، شفيق ، أدب عصر النهضة ، ط١، بيروت، دارالعلم للملادين ، ١٩٩٠م.
- ٤- بوحاقة، أحمد، الإلتزام في الشعر العربي، ط١، بيروت، دارالعلم للملادين، ١٩٧٩م.
- ٥- الدقاق، عمر، الإتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، د.ط، بيروت، دارالشرق العربي، ١٩٨٥م.
- ٦- الرصافي، معروف، ديوان، د.ط، بيروت ، دار العودة، ١٩٨٦م.
- ٧- الفاخوري، حنا، الموجز في الأدب العربي وتاريخه «الأدب العربي القديم» ط٨، بيروت، دار الجيل، ١٩٩١م.
- ٨- المقدسي، أنيس، الأتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ط٨ ، بيروت ، دار العلم للملادين، ١٩٩٨م.